

حامم الطفولة

تأليف : آمنة ال رحمن

“بعض النساء لا يُعلن النور

في البيوت فقط، بل في

المستقبل ايضاً

أبصرت النور ميلاً في قرية واسعة الأراضي
لكنها قليلة البشر،

لم يكن فيها إلا منازل أهلها وجار واحد.
كانت ميلاً تعيش مع والديها وخمسة إخوان، وأربع
أخوات.

أم ميلاً امرأة عصبية جداً،
كانت تضرب ميلاً وإخوانها منذ طفولتهم لأنها تحب أن
يكون كل شيء في مكانه، وتحب أن يكون منزلها نظيفاً،
فكانت تعاقب من يعبث في أغراض المنزل.
فكانت ميلاً أكثر من يُلقى ضرباً.

وبالنسبة لأبيها، فكان أغلب الأوقات خارج المنزل، لكن
عند عودته يحب أن يلعب مع ميلاً لأنها أقرب أبنائه إليه.

عندما أصبحت ميلاً في السابعة من عمرها، قرر أبوها أن يصطحبها معه إلى المدرسة لتتعلم وتحقق حلمها بأن تصبح معلمة مثل أبيها.

كانت فرحتها لا توصف.

فطلبت من أبيها أن يشتري لها لباس المدرسة والقرطاس، فذهبا معاً، ثم قام أبوها بشراء كل ما تحتاجه.

بدأت ميلاً يومها الأول في المدرسة، فكانت ذكية جداً، نجحت في المرحلة الأولى والثانية، وحتى وصلت للتاسعة.

عندما أصبحت ميلاً في الرابعة عشرة من عمرها، أصبحت جميلة جداً، وكان في كل يوم يزورهم أحد الأقارب ليطالبها للزواج، وكانت ترفض من أجل أن تستمر في مدرستها لتحقيق هدفها وتصبح معلمة.

في أحد الأيام،

خرجت ميلاً إلى المزرعة لتساعد جدتها.

إذ يرى ميلاً أحد الأصدقاء المقربين من والدها والذي يكن له الاحترام.

فجاء في مساء ذلك اليوم ليطلبها لتكون عروساً لابنه الصغير "آزاد".

كان والد ميلاً لا يستطيع أن يرفض له طلباً لأنه أكبر منه بكثير ويقدره ويحترمه فقد كان صديق والده من قبل .

فحاول والد ميلاً أن يقنعها، واستطاع من ذلك بعد أن كان شرطها أن تستمر في دراستها في بيت زوجها.

تزوجت ميلاً في وقت قصير جداً.

كانت ميلاً خائفة في البداية لأنها انتقلت من منزل والدها إلى منزل آخر، وبعدها تعودت، واستمرت في إكمال المرحلة الدراسية التاسعة، ونجحت بتفوق كالعادة.

من هنا تبدأ حياة ميلاً المأساوية.

بعد أن أصبحت ميلاً حاملاً، بدأ العام الدراسي الجديد، وكانت في الشهر السابع من حملها، فرفض والد زوجها أن تكمل دراستها.

حاولت كثيراً أن تكمل، لكنها لم تنجح، وزوجها "آزاد" لم ينجح في إقناع والده، لأن الكلمة الأخيرة كانت له. انهارت ميلاً بالبكاء،

وأصبحت حزينة للغاية، فرفضت أن تأكل وتشرب، وكرهت الطفلة التي في بطنها لأنها كانت السبب في تركها لأحلامها.

طلبت ميلاً من والدها ومن زوجها "آزاد" المساعدة، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. فقال آزاد لميلاً:

— لا تقلقي يا ميلاً، أنا معك، وسوف أفعل كل شيء من أجل أن تعودى إلى المدرسة. فقالت ميلاً:

— وإن لم تستطع يا آزاد؟

قال آزاد:

— لو كان آخر يومٍ لي في هذه الحياة، سوف أحقق لك حلمك يا ميلاً.

قالت ميلاً:

— وماذا عن والدك يا آزاد؟

رد آزاد:

— سوف أقنعه بأي شكل من الأشكال يا ميلاً، لا تخافي.

قالت ميلاً:

— وإن لم تنجح بإقناعه ؟

قال آزاد:

— إن رفض، سوف نترك المنزل يا ميلاً.

قالت ميلاً:

— ومن أين نجد المال لنسكن بمفردنا ؟

قال آزاد:

– سأعمل بجهدٍ مضاعفٍ يا ميلاً من أجل جمع المال.

قالت ميلاً:

– وأنا أيضاً يا آزاد، بعد الولادة سأبدأ في العمل بالخياطة من أجل أن أساعدك في جمع المال.

قال آزاد:

– أنا وأنتِ معاً سنحقق الحلم يا ميلاً، لن أتركك أبداً.

وبعد أن أنجبت ميلاً طفلتها التي تشبهه كثيراً، طلبت من آزاد أن يجلب لها ماكينة الخياطة لتبدأ بالعمل.

وعندما حضر آزاد الماكينة ،

استطاعت ميلاً أن تتجح في الخياطة، لكنها لم تحظَ بالوقت المناسب لذلك،

لأنها كانت تعمل كثيراً في المنزل.

كانت تجهز المائدة، وتقوم بتنظيف المنزل، وتهتم بطفلتها، فينتهي يومها برمي نفسها على الوسادة من شدة الإرهاق.

ولا تعلم ميلاً كيف انتهى هذا العام، وقبل أن يبدأ العام الدراسي التالي، تكلم آزاد مع والده،

لكنهم جميعاً وقفوا في وجهه، ولم يتركوا له خياراً سوى أن يغادر المنزل مع ميلاً وطفلتها.

وفي ذلك اليوم، كانت والدة آزاد تطلب منه أن يترك هذه الفكرة، وقالت إنها سوف تحاول إقناع والده.

وفي مساء اليوم التالي،

اتصل أحدهم بـ "آزاد" ليخبره :

أن أخاه الأكبر قد استشهد في الحرب، وترك زوجته وأطفاله الخمسة.

وكان آزاد وأهله في حالة يرثى لها، فتركت ميلا فكرة العودة، وبدأت بالحزن معهم

وبعد ثلاث سنوات، أنجبت ميلا طفلتها الثانية التي كانت أجمل من البدر، وكان الجميع يقول لها: "لو أنك أنجبت ولداً ليحمل اسم العائلة!"، وكأنها هي من أرادت أن تكون بنتاً.

وبعد فترة قليلة، مرض والد آزاد وأُصيب بجلطة وتوفي،
وفي ذلك الوقت عادت ميلا إلى الحزن مجدداً، وكان
منزلهم منزل بكاء وأنين.

فكانت عمة آزاد تجرح ميلا بالكلام إذا رأتها تبتسم
لأبنائها بحجة الحزن وأن الفرح والضحك ليس مناسباً.

وبعد عامين من وفاة عمّها،

أرادت ميلا أن تحتفل بعيد ميلاد ابنتها الصغيرة، فطلبت
من عمتها أن تأتي معهم،

لكنها تفاجأت من تصرف عمتها

إذ بدأت بالصراخ ولطم الرأس وفضحتها أمام الجميع
بحجة الحزن على زوجها.

في وقتها انهارت ميلا ولم تستطيع الوقوف وكأن الكون
انهار على رأسها من شدة الخجل والفضيحة فقد فضحت
أمام الجميع ،

وشعرت بالذنب رغم أنها لم تفعل شيء سوى الاحتفال
بعيد ميلاد ابنتها .

وبقي البيت بيت حزنٍ لسنوات طويلة، حتى عاد حزن آخر، وأصبح بين فترةٍ وأخرى يتوفى أحد من أقارب آزاد، واستمرت المصائب والحزن.

ومع ذلك،

كانت ميلا تواجه الكثير من المشاكل واللوم على كل تحركات طفلتيها الصغيرتين،

ولم يكن هناك وقت لميلا حتى تفكر في أحلامها.

فقررت أن تنجب ولدًا ليحمل اسم آزاد وتتخلص من كلام أقرباء زوجها،

وفعلًا أنجبت ولدًا شقيًا ومشاغبًا، كثير اللعب،

وبيعثر كل شيء في المنزل حتى يُرهق ميلا ليلاً ونهارًا.

فكان يحب تقليد الحركات والأصوات، ومع ذلك كان لطيفًا جدًا.

وبعد ما توفي والد آزاد ، بدأ أخوه بالتحكم في كل شيء ، وحاول أن يقلل من احترام آزاد وزوجته ، وأهان ميلا على أبسط الأمور ، بل كان يضرب أطفالها كل يوم ، حتى تمادت زوجته أيضاً وقامت بضرب ميلا حتى تشوّه وجهها ، وامتلاً المكان بدمها ، بسبب الغيرة .

فبعد عودة آزاد من العمل ، ووجد ميلا في هذه الحالة ، قرر أن يترك المنزل ، لكنه لا يستطيع بناء منزل في وقت قصير ، فكانت أقل مدة للبناء شهرين .

فعرض عليه أخوه الذي يقيم في منزل آخر أن ينتقل إليه مع ميلا وأطفاله ، إلى أن ينتهي بناء منزله .

فانتقلا بالفعل إلى بيت أخيه ، وسكنا معهم ، وكانت ميلا محرّجة من أخيه وزوجته ، وكان لديهم أبناء ، وبدأت المشاكل تشتعل بين بنّيتها وأبنائهم .

وانتقلت ميلا بدون أغراضها ، فبقي كل شيء تملكه في غرفتها ، فقط أخذت القليل من الملابس التي تحتاجها ، وكانت تستحي أن تطلب شيئاً من زوجة حماها إن احتاجته .

عانت ميلا كثيرا في تلك الفترة .

كانت تشعر أنها غريبة في بيت ليس بيتها، وتُحاول أن تتجنب أي احتكاك مع أحد، لكنها في داخلها كانت تتألم بصمت

ورغم كل ما حدث...

وقفت ميلا إلى جانب آزاد، لم تتركه ولم تفكر بالعودة إلى أهلها، بل فضّلت أن تخفي عنهم الحقيقة، فلم تخبرهم بأنها تسكن في بيت أخ زوجها.

وعندما يرغبون في زيارتها، كانت تتحجج بالخروج إلى السوق أو الطبيب، فقط حتى لا يأتوا ويروها هناك، فيعلموا أن آزاد قد اضطر لمغادرة منزله.

وفي اليوم التالي، كانت تذهب لزيارتهم بنفسها، حتى لا تترك لهم فرصة للشك أو السؤال، فقد أرادت أن تحمي زوجها من نظرات الشفقة أو اللوم.

حاولت كثيرا، ضحّت بصمت،

وتحمّلت أكثر مما تحتمل أي امرأة...

لكنها كانت ترى أن آزاد يستحق ذلك، فهو رجل طيّب،
حنون، لم يخذلها يوماً، وكان دائماً في صفّها، يساندها
ويقف معها في وجه الحياة مهما اشتدّت.

بعدها أصبحت ميلا تعمل طوال الوقت، كانت ميلا تعمل ليلاً ونهاراً في خياطة الستائر والأغطية والملابس، فهي مشهورة في هذا المجال، والجميع يحب عملها.

جمعت الكثير من المال،

وقامت ببيع ما تملك من ذهب لتعطيه لآزاد.

وعملت مندوبة مبيعات ايضاً .

وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع آزاد إكمال المنزل، فقرر أن يأخذ قرضاً كبيراً ليكمل البناء.

واستمرّا في مساعدة بعضهما البعض، إلى أن اكتمل منزلهما، وأصبح متاحاً للسكن.

انتقلت ميلا وعائلتها إلى منزلهم الجديد بعد شهرين، وكانت السعادة تملأ قلوبهم، كان منزلاً لطيفاً يليق بهم.

وفي ذلك الوقت كان هناك انتشار واسع لمرض الكورونا.
كان العالم كله يتحدث عن هذا المرض الجديد، وكان اسمه
:

(Coronavirus Disease 2019 (COVID-19

وكان هذا المرض ينتشر بسرعة مخيفة، من مدينة إلى
أخرى، ومن دولة إلى دولة.

حيث بدأ بالصين وانتقل إلى جميع دول العالم.

وكانت أخباره لا تفارق التلفاز ، و وسائل التواصل
الاجتماعي.

يقال إنه مرض تنفسي خطير، يسببه فيروس جديد يُدعى:
SARS-CoV-2.

وكان من يُصاب به تظهر عليه أعراض مثل:

● ارتفاع في الحرارة

● السعال الجاف

● صعوبة في التنفس

● فقدان حاسة الشم أو التذوق

● إرهاق شديد

وكان أخطر شيء فيه أنه قد يؤدي إلى الوفاة، خاصة عند كبار السن أو أصحاب الأمراض المزمنة مثل مرضى السكري، أو القلب، أو الربو.

في البداية، لم تكن ميلا تهتم كثيرًا، لكنها بدأت تخاف حينما سمعت أن المرض قد وصل إلى منطقتهم.

وصار الجميع يلبس الكمامات، ويعقم الأيدي، ويغلق الأبواب، والمدارس توقفت، والعمل توقف، والحياة بدأت تصبح مخيفة وصامتة.

في تلك الأوقات، كانت ميلا قلقة على أطفالها.

فلم تكن الحياة سهلة بعد أن عاشت كل ذلك التعب، والآن يظهر مرض يجعل كل ما بنته مهدداً من جديد.

كانت ميلا تشعر بالخوف والقلق على زوجها وأطفالها.

آزاد يعمل سائقاً، وكان يلتقي بأناسٍ كثيرين كل يوم، بعضهم مرضى، وآخرون لا يأبهون بارتداء الكمامة أو اتخاذ الاحتياطات.

كيف ستمرّ هذه الأيام الثقيلة؟

القلق لم يكن على نفسها فقط، فكانت قلقةً على البيت الذي بُنيَ بالتعب، وعلى الأطفال الذين لم يعرفوا من الحياة سوى تقلباتها، وعلى زوجها الذي لم يعد قلبه يحتمل خسارة أخرى.

كانت ميلا قد وقفت سابقاً وقفة عظيمة مع عائلة زوجها.

حين أصيب الجميع بكورونا، لم تتردد، كانت أول من حملت المعقم، وعالجت ، وأعدت الطعام، وسهرت على حرارة أطفالهم ، وداوت الجميع بحنانٍ يفوق طبّ الأطباء.

وحين تعافت العائلة، رحلت ميلا بهدوء دون أن تنتظر
شكرًا.

لكنهم نسوا. نسوا كل ما فعلته لأجلهم.

لم يُذكر اسمها حين تكلموا عن منقذهم، ولم تلمع
صورتها في مجالسهم حين تحدثوا عن الذين وقفوا
بجانبيهم في المحنة.

كانت ميلا بالنسبة لهم مجرد "زوجة الابن"، لا أكثر.
ولم تكن تتوقع منهم شيئًا، لكنها كانت تشعر بالحزن في
داخلها،

حزن على النكران، و على نفسها...

على القلب الذي لم يتوقف عن العطاء رغم كل شيء.
في تلك الليالي، كانت ميلا تجلس على سجادة صلاتها
تبكي بصمت.

كانت تقول في نفسها:

“كلّ ما بنيته من صبرٍ وعطاء، هل يضيع؟

أيعقل أن أنسى بسهولة؟

أين أذهب بأحلامي؟

لم أحقق منها شيئاً بعد .

هل كُتِبَ عليّ أن أكون ظلاً، حتى في بيتي؟”

كيف لي أن أتحمل هذا العبء؟

لكنّها ما إن تسمع ضحكة طفلتها الصغيرة، أو زحف ابنها
المشاغب وهو يحاول الوصول إلى قدميها، حتى تعود
للحياة من جديد.

كان المنزل رغم ضيقه يمتلئ بدفء قلوبهم.

وكانت ميلا تعرف أن الأيام لن تبقى سوداء إلى الأبد،
وأن الله لا ينسى من قدّم الخير في الخفاء.

في إحدى الأمسيات، وبينما كانت تخطط ستارة لصديقة،
دخل عليها آزاد وهو يحمل كيساً من البقالة، ووجهه
متعب.

قالت له وهي تمسح جبينه:

— تعبتي اليوم؟

فقال آزاد، بابتسامة هزيلة:

— لا شيء يتعبني ما دمتُ أراكِ بخير، يا ميلا.

قالت له:

— هل تشعر بأي أعراض؟ الحرارة؟ ضيق نفس؟

قال:

— لا تخافي، أنا حذر جداً، وأفكر فيكم كل لحظة.

كان بينهما شيء لا يشبه حبّ المسلسلات .

وفي تلك الأيام التي عاشها العالم تحت ظل كورونا، كانت
ميلا تنمو من الداخل، تتغير، تشتد، كأن كل تجاربها
السابقة كانت إعداداً لها.

صار لديها صبرٌ أعظم، وإحساسٌ عميق بأن الله يراها.

لم تعد تفكر فقط في حلمها بأن تصبح معلمة،

بل صارت تحلم أن تفتح محلاً صغيراً للخياطة، تدرّب فيه الفتيات مثلها، ليعتمدن على أنفسهن ويكسبن مالاً بالحلال.

صارت تؤمن أن التعليم لا يعني فقط الكتب،

بل أن يتعلم الإنسان

كيف ينهض كلما سقط، وكيف يصبر كلما أُغلق الباب في وجهه.

وفي تلك الأيام المظلمة التي أغلقت فيها المدارس،

وبقيت الناس في بيوتها ليلاً ونهاراً، وتحول التعليم إلى إلكتروني،

وكانت الامتحانات الوزارية فقط تُجرى حضورياً
فحذف من بعض المواد وتم تقليصها . فرجعت ميلاً
تفكر في الدراسة مرة أخرى .

و لكن كانت البلاد لا تزال في صدمة كبيرة.

وكانت أكثر لحظات تلك الفترة رعباً ما حدث في مدينة
الناصرية، حين اندلع حريق مهول في مركز العزل
الصحي داخل مستشفى الإمام الحسين التعليمي بذي قار،
مساء يوم الاثنين، 12 تموز/يوليو 2021.

اشتعلت النيران في وحدة العزل الخاصة بمصابي
كورونا، بسبب ماس كهربائي أو انفجار أسطوانة
أوكسجين، فانتشرت بسرعة داخل القاعة، التي كانت
مبنية من ألواح السندويج بنل سريعة الاشتعال،
دون مخارج طوارئ آمنة.

وأمام عجز الفرق الطبية، وغياب الاستعدادات، تُرك
المرضى لمصيرهم، وارتفعت النيران وأصبحت
تحاصرهم دون رحمة.

في دقائق معدودة،

تحوّل المكان الذي كان يُفترض أن يُنقذ أرواحًا، إلى
محرقة مأساوية راح ضحيتها أكثر من (60 شهيدًا)"

بينهم مرضى عاجزين عن الحركة، وأطباء وممرضون
حاولوا إنقاذهم حتى آخر لحظة.

ذاع الخبر في كل بيت، وانتشرت صور النيران وأصوات
الصراخ على شاشات الأخبار، فأصيب الناس بالحزن
والذهول.

فبكت وهي تتابع الحريق، شعرت بأن الألم ليس بعيدًا،
وأن الكارثة يمكن أن تصل لأي بيت.

وبعدها، استمرّت الحياة... لكنها لم تعد كما كانت.

لأن الجائحة قد أخذت الكثير من الأقارب، والبعيدين،
وجعلت الخوف ضيفًا في كل البيوت.

فتركت ميلا الأمر مجدداً .

ولم تتقدّم للامتحان الخارجي، وانشغلت بأمور البيت،
وتربية الأولاد،

والعمل الذي لا ينتهي...

ثلاث سنوات مرّت كأنها قطار عابر لا ينتظر أحداً .

نسيت خلالها حلمها،

أو حاولت أن تتناساه،

وكانت تُقنع نفسها أن لا وقت للأحلام الآن...

فهناك من يحتاجها،

وهناك أشياء أولى من التعليم.

و ذات مساء، بينما كانت تتصفح هاتفها دون هدف،
 ظهرت لها مقاطع تُشجّع طلاب الثانوية على التقديم
 للامتحانات... فيديوهات كثيرة، متتالية، كلما شاهدت
 واحدًا ظهر غيره...

كأن القدر يهمس لها:

“ما زال الوقت معك، لا تستسلمي.”

ومع كل مقطع، كانت تشعر بشيء يتحرّك في داخلها...
 مزيج من الندم والاشتياق والشوق لذلك الحلم القديم الذي
 حاولت دفنه.

وفي إحدى الليالي الهادئة،

كان البيت ساكنًا تمامًا. جلست ميلا عند رأس آ زاد،

وهو نائمٌ بجانبها،

يُحيطها الصمت من كل جانب، إلا من ضوء الهاتف
 الخافت.

فتحت مقطعًا يُصوّر فرحة طالب بنجاحه، لحظة إعلان
 حصوله على المركز الأول.

تجمدت ملامحها...

وضغطت على قلبها لئلا تمنع دموعها،

لكنها خانتها.

بدأت الدموع تنهمر، ببطء، بحرقة، دون أن تقدر على إيقافها.

فتح آزاد عينيه بهدوء، ونظر إليها...

لم يسألها ما بها،

فقد رأى السبب بنفسه...

ذلك الفيديو،

وتلك الفرحة، التي شعرت ميلا أنها لم تكن لها أبدًا.

لم يجرؤ آزاد أن يتحدث،

وكأنه أدرك فجأة كم من الأشياء حرمت منها زوجته من أجله...

وكم من المرات ساندته،

وضحت لأجل العائلة...

بينما هو،

لم يسألها يوماً عما تريده.

نهضت ميلاً بهدوء، ومسحت دموعها سريعاً كي لا يكمل
الوجع طريقه.

وذهبت للمطبخ تتظاهر بالانشغال...

لكنها كانت تتهرب من المواجهة، من الجرح،

ومن الألم القديم الذي أيقظه مقطع عابر.

وفي تلك الليلة، حين نام الجميع، لم تتم هي...

فتحت هاتفها من جديد، لكنها هذه المرة لم تُشاهد فحسب،
بل كتبت في محرك البحث:

“موعد التقديم على الامتحان الخارجي للثانوية العامة .

أخذت تقرأ الشروط بتأنٍ .

شعرت أن أملاً كان راقداً في أعماقها قد بدأ يهمس من جديد:

“الفرصة لم تذهب، بل كانت نائمة...”

وفي صباح هادئ، جلست ميلاً إلى جانب الطاولة،

تقبض على هاتفها بيدٍ فيها رجفة خفيفة، وملاحمها تنبض بعزم

صامت.

لم تكتب شيئاً، لم تُحضر ورقة، لكنها كانت قد حفظت كل التفاصيل في ذاكرتها.

وعندما استيقظ آزاد،

وجدها واقفةً أمامه، بعينين يتوهج فيهما الشغف، وقالت بصوتٍ خافتٍ ثابت:

“هذه السنة... سأقدّم، ولو لم أنجح. ما عدت أحتمل أن يمرّ عمري دون أن أطرق باب حلمي.”

ظلّ آزاد ينظر إليها طويلاً...

لم ينطق بحرف . فقد اجتاحه صمتٌ ثَقِيلٌ.

كان بين ضلوعه صوتان يتنازعان:

صوت يخاف أن تتشغل عنه وعن ابنتيه، أن تسرقها
الكتب من أحضان بيتها،

وصوتٌ آخر يرى النور في عينيها، ويخشى أن يُطفئه إن
قال: لا.

في داخله، كانت الأسئلة تنهمر كالطر:

هل تستطيع؟

هل تقوى على الطريق إن تعثرت؟

هل ستحمل خيبة أخرى إن لم تصل؟

لكنه، رغم كل مخاوفه، لم يستطع أن ينكر ما رآه...

تلك اللعة في عينيها، لم تكن مجرد رغبة، بل كانت حياة
تعود لتزهر.

اقترب منها بهدوء، ووضع يده على يدها، وقال بصوتٍ
خافت:

“إن كان هذا ما يوقظ قلبك...

فامضي....

وسأكون حيث كنت لي دوماً سنداً لا يميل،

وإن خفتُ عليك، فلن أقيد جناحيك.”

ابتسمت، وكان في ابتسامتها رجْع الأمل الذي عانق النور
بعد طول غياب.

وقالت:

“لن أخذك، كما لم تخذلني.

سأمضي، لا لأحاول فقط، بل لأبلغ.”

في تلك اللحظة، لم تكن مجرد زوجة قررت أن تدرس،
بل كانت امرأة تكتب على صفحة الأيام سطرًا جديدًا من
ذاتها...

سطرًا لا يُشبه الندم، بل يُشبه البداية.

كانت الخطوة الأولى، أن تقف ميلاً أمام آزاد بعينين
تملؤهما رغبة، وشفاه تنطق بالحلم القديم :
“أريد كتب الدراسة... أريد أن أبدأ.”

ابتسم آزاد، لكنه شعر بثقل الطلب، فميزانيتها بالكاد تكفي
لضرورات الحياة. نظرت إليه بخجل، وقالت:

“لا أملك ما يكفي... لكنّ الكتب هي مفاتيحي للحلم.”
فأمسك يدها وقال بلطف يشبه وعدًا:

“سأبحث لك عنها... عند أصدقائي، عند الذين أعرفهم...
لا تقلقي.”

وفعلًا، لم يخيبها.

بذل جهده حتى جمع لها نصف الكتب،

أما الباقي،

فكانت تشتريه تدريجيًا...

تارةً دفترًا، وتارةً قلمًا، ومرةً أخرى كُراسًا جديدًا.

كل غرض كانت تشتريه، كان يشعل في داخلها شعلة صغيرة من الأمل .

في تلك الفترة، كانت ميلا مختلفة...

تمشي وهي تحدّث نفسها عن الدروس،

تطهو وهي تفكر في مادة التعبير،

وتخطط وهي تراجع قوانين الرياضيات.

كانت تعيش في عالم موازٍ، لا يسكنه إلا الطموح.

حتى جاء اليوم المُنتظر...

يوم التقديم للامتحانات.

أخذها آزاد بيده إلى دائرة التسجيل، وفي الطريق كانت تنظر من نافذة السيارة، كأنها ترى المستقبل يلوح لها.

كان يوماً طويلاً، مرهقاً، متعباً، لكنّ قلب ميلا لم يشعر
 بشيء من العناء،
 فقط سعادة نادرة...

عادت إلى مدرستها القديمة، ذلك المكان الذي غادرته منذ
 سنين.

وقفت على الباب، تود أن تدخله، توقّع بنفسها... لكنّ آزاد
 أوقفها وقال:

“أنا اخذ الأوراق مكانك إلى المدير. لا داعي لدخولك،
 أنت الآن أمانة.”

أخذ الأوراق، وقع، بصم، وأعادها إليها... وفي قلبه
 غيرةٌ خفيّة، ممزوجة بحرصٍ وحبّ، لا يعرف كيف
 يخفيه.

وبعد أيام، نُشرت أسماء المتقدمين، وظهر اسم ميلا من بينهم... ومعه ظهر مركزها الامتحاني.

غمرت الفرحه قلبها كما لم تفعل من قبل.

بكت، وضحكت، وقبّلت الورقة التي كُتب فيها اسمها... وكأنها شهادة ولادة ثانية.

وفي تلك اللحظة، لم تكن فرحتها لها وحدها، لكل من ألهمتهم شجاعته.

نساء كثيرات سار عن بعدها لتقديم أوراقهن، وقلن:

“إذا نجحت ميلا، فنحن نستطيع أيضاً.”

بدأت رحلة الجدّ...

قراءة لا تنتهي، سهر طويل، تعب دائم، وقلق لا يفارقها.

كانت تعاني من النسيان، فتخاف، وتُحبط، وتقول لنفسها:

“هل نسيت كل شيء؟ عشر سنوات مضت... كيف سأعود؟”

لكن سرعان ما تعود، تمسك الكتاب، وتهمس:

“سأنجح، لا مجال للاستسلام.”

كان أهل زوجها يزرعون الشكّ في طريقها:

“فلانة قدمت وفشلت،

وفلانة حاولت ولم تُوفّق.”

لكنها كانت تُحسن الظن بالله، وتحمل همّها إلى ربّ لا يُخيّب.

وصل يوم الامتحان التمهيدي.

دخلت القاعة بقلب يخفق، وعينين تمتلئان بالدعاء.

أجابت بتركيز، ولم تلتفت لشيء سوى حلمها.

وبعد أيام... نُشرت النتائج.

تقدّمت نحو الهاتف بحثت عن اسمها...

ووجدته.

“ناجحة – متأهلة للامتحانات النهائية.”

لم تستطع الكلام...

ثم صرخت بأعلى صوتها من شدة الفرح .

الدموع سبقتها، وضحكتها سبقت كل الدموع.

احتفل بها بناتها قبلها .

لم تكن تلك ورقة عبور فقط...

بل كانت جسراً يعيد لها الثقة، يعيد لها الحياة.

نظرت إلى السماء، وهمست:

“اللهم لك الحمد... اجتزت أول السُّلم، وسأصعد حتى أبلغ النور.

لم تكن الأيام التالية سهلة.

ازدادت الدروس صعوبة، وكثرت المواد، وتكاثفت الأوراق، وتوالى الليالي الطويلة التي كانت تمضيها بين الحفظ والمراجعة والتكرار.

لكنّ القدر أراد أن يضع امتحاناً من نوع آخر في طريقها.

في أحد الأيام، شعرت ميلاً بتعبٍ غريب، لم يكن كالعادة.

كان جسدها يئن في صمت، وحرارتها لا تنخفض، وعيناها لا تقويان على القراءة.

ظنّت أنه إرهاقٌ عابر، لكنها ما لبثت أن وجدت نفسها مضطرة إلى زيارة الطبيب.

الفحوصات، التحاليل، ثم التشخيص...

“أنت بحاجة إلى عملية جراحية صغيرة، لكن لا يمكن تأجيلها.”

ترددت... لم تكن تفكر بجسدها بقدر ما كانت تفكر في موعد الامتحان.

هل تتراجع؟ هل تؤجل الحلم من جديد؟

لكنها قررت أن تمضي...

الحلم لا يليق به التأجيل، إنما يحتاج إلى من يحمله، ولو كان مثقلاً بالألم.

أجريت لها العملية واحتاجت بعدها إلى فترة نقاهة، كانت فيها معلقة بين الصبر والخوف.

لا تقوى على الجلوس كثيراً، ولا تستطيع الحفظ كما اعتادت.

كانت تمسك الكتاب، وتغفو، ثم تستيقظ وهي تبكي:

"اللهم لا تحرمني ما دعوتك به منذ سنوات..."

لكنها عادت، من تعبها، من وجعها، من سريرها،

عادت إلى الكتب، إلى الملخصات، إلى الجداول والمراجعات المكثفة.

كان الوقت يضيق، وهي تلهث خلفه، كأنها تطارد قطاراً لا ينتظر أحداً.

وفي كل يومٍ كانت تقاوم فيه، كانت تكبر في عين
نفسها...

تتحول من امرأة عادية إلى أسطورة صغيرة، لا تُكتب في
الكتب .

جاء اليوم المنتظر، يوم الامتحان الوزاري.

قامت مبكرًا، صلت، ولبست ثيابًا بسيطة، لكنها اعتنت
بتفاصيلها...

لأنها كانت تشعر أن هذا اليوم سيكتب في ذاكرتها إلى
الأبد.

وصلت إلى المركز الامتحاني، وكان آزاد ينتظرها في
الخارج كل يوم، لا يتذمّر، لا يشكو.

فقط يجلس بهدوء، يدعو لها، وينظر إليها كما لو كانت
تنتمي لعالمٍ آخر... عالم الشجعان.

وبين كل امتحانٍ وآخر، كانت تقاوم التعب، وتقرأ، وتعيد،
وتحفظ، وتخاف، وتبتسم، وتُكمل.

وبعد آخر يوم، حين خرجت من القاعة، نظرت إلى
السماء، ورفعت كفيها:

“يا رب... بذلت ما أستطيع، فاجعل النهاية فرحاً يليق
بهذا العناء.

عندما خرجت ميلا من قاعة الامتحان الأخير،
لم تكن تسير على الأرض، بل كانت تطير خفيفةً كأنها
نفضت عن كاهلها ثقل السنين.

انتهى الامتحان، وانتهى معه فصلٌ طويل من السهر
والجهد والمراجعة والقلق،

لكنها ما كانت قادرة على الابتسام كاملةً؛
فشيءٌ في قلبها كان لا يزال يطرق بقوة...
القلق.

كانت تخشى مادة واحدة: التاريخ.

ذلك الامتحان الذي شعرت فيه أنّ إجاباتها لم تكن في
موضعها،

كأن الورقة التي كتبتها لا تشبه اجتهادها.
فكانت تبتسم من الخارج... وتقلق في الداخل.
حين وصلت إلى السيارة،

استقبلها آزاد بابتسامة وقال:

“انتهى التعب... اليوم نحتفل. سنزور أختي، فقد دعتنا للغداء.”

لم تمنع ميلا، رغم الإرهاق،

فأخت زوجها كانت مقرّبة إلى قلبها،

وفي بيتها وجدت الدفء والترحاب،

وكان ابنها أيضًا في مرحلة الثانوية،

فبدأ الحديث ينساب بينهما عن الامتحانات والأسئلة
واللحظات الصعبة.

ضحكت ميلا كثيرًا في ذلك اليوم،

ضحكة كانت تختبئ خلفها منذ زمن،

ضحكة تليق بامرأة أنهت امتحانًا، ولم تنتهِ من الحلم.

لكن كما هي الدنيا... لا تمنحنا الفرح إلا ومعه شيءٌ من
الألم.

في اليوم التالي،
 وصلهم خبرٌ أثقل الأرواح،
 أحد أقارب آزاد أصيب بسرطانٍ في الفك السفلي،
 وكانت حالته تزداد سوءًا مع مرور الأيام،
 وكأن الزمن نفسه قرر أن يصعد سلّم الألم على جسده
 درجةً درجةً.
 في تلك الفترة، لم تكن ميلا تنتظر النتيجة وحدها...
 كانت تعيش أيامًا مضطربة، بين قلق انتظار، وخوف فقد،
 ومشاعر متداخلة لا تهدأ.

ثم جاء ذلك اليوم.
 فتحت ميلا هاتفها،
 دخلت إلى الموقع، كتبت رقمها، وانتظرت،
 وكأن الحياة كلّها معلّقة على لحظة تحميل صفحة واحدة.

ثم ظهرت النتيجة...

نجحت. وبمعدلٍ جيد.

شهقت من الفرح، ثم سجدت على الأرض،

لم تكن تصدّق أن حلمها صار حقيقة،

أنها الآن تمسك نتيجةً نُسجت من دموع، وسهر، وتعب،
وإيمان.

لكن حين رفعت رأسها،

لم تجد من يبارك.

البيت كان هادئاً... مثقلاً بالحزن.

فالقريب المصاب كان يحتضر،

والكلّ منشغل بحالته، والأرواح مبللة بالحزن والدعاء.

لم تغضب ميلا،

بل قالت في نفسها:

“إن فرحة النجاح لا تُفسدها لحظة سكوت...

فالله بارك لي بهذا النصر، وسأحتفل في قلبي، بصمت.
 عادت ميلا إلى البيت وهي تحمل في قلبها ضوءاً لم يكن
 فيها من قبل...

فتحت الباب، فركضت إليها صغيرتاها،

تسأل إحداهما بلهفة:

– “ماما، نجحتي؟”

نظرت إليهما ميلا بعينين لامعتين وابتسامة تضيء
 وجهها،

ثم انحنى وعانقتهما بشوق قائلة:

– “نعم، ماما نجحت... ”

صفقتا بفرح وقفزا .

ركضتا في البيت كأنهما تحملان نصراً للعائلة كلّها.

أما آزاد... فكان ينظر بفرحة.

لم يتكلم كثيراً،

لكنه اقترب، وضع يده على كتفها، وقال بصوتٍ خافت:
 - “أنا فخور بك... أكثر مما تظنين.”

مبارك لكِ يا حبيبتي

كان ذلك يكفيها.

فهي لم تكن تريد من الحياة أكثر من لحظة فخرٍ واحدة،
 تُرى فيها كما رأت نفسها دومًا...

امرأة لا تنكسر، ولو تأخرت أمانيتها عشر سنوات.

وفي صباح اليوم التالي، لم تكتمل الفرحة كما ينبغي...

فذلك الشاب القريب الذي كان يصارع المرض بصمت،
 توقّف قلبه عن النبض،

وودّع الحياة بهدوء مؤلم.

خيم الحزن على العائلة، وارتفعت نبرة النواح في البيت،
 انطفأت الضحكات، وتحول الاحتفال المنتظر إلى مجلس
 عزاء.

كان آزاد مضطرباً، يسير في البيت كمن يحمل ثقلًا لا يُحتمل.

لم يكن مجرد قريب...

بل كان أخًا وصديقًا وشاهدًا على تفاصيل العمر.

وكانت ميلا تشاركه الصمت،

تدرك أن بعض الأحزان لا يُسعفها الكلام،

ولا يُخففها العناق،

بل تحتاج وقتًا لتخفت وتستكين.

وفي تلك اللحظات، عرفت ميلا كيف تمضي الحياة بين

تناقضاتها،

كيف يُولد الأمل من قلب الخسارة،

وكيف تمشي الأحلام جنبًا إلى جنب مع الفقد،

لا تُلغيه... لكنها تُقاومه.

ولأنها الآن تعرف ذلك،

كانت أكثر صبرًا، وأكثر حكمة.

فالنجاح الحقيقي...

هو أن تواصل، رغم كل ما تفقده في الطريق .

هكذا، حتى في ظل الحزن،

استمرّت الحياة،

واستمرّت ميلا...

كانها الضوء الوحيد الذي بقي مشتعلًا في ركنٍ هادئٍ من
هذا البيت .

في ذلك الوقت، شعرت ميلا بقيمتها الحقيقية لأول مرة،

لم تعد تقيّم نفسها بعيون الآخرين،

بل رأت في أعماقها نورًا بسيطًا لكنه قادر على أن يُنير.

لم تكن تطمح للمناصب العالية ولا للأضواء،

بل كانت تحلم أن تصبح شيئًا نافعًا في هذا المجتمع،

حتى لو كان حضورها متواضعًا...

كأستاذة ناجحة، تزرع حبّ العلم في قلوب طالباتها،
 أو امرأة تنسج الكلمة بصدق فتترك في الأرواح أثراً.
 كانت ميلاً تقرأ الروايات عن الشخصيات المؤثرة في النقد
 والأدب،

فترأى أمامها كأنها تناديهما،

وتهمس لها:

“لكِ مكان بيننا... فقط واصلي.”

فأصبحت تهتم بالشعر، وتغوص في أعماق النثر،

وتبحث في العلم كما يبحث العطشان عن ماء نقي.

كل شيء بات له قيمة عندها...

الكتاب، الوقت، الفكرة، الحرف...

أدركت أنها كانت تمرّ بأشياء كثيرة في حياتها دون أن
 تُنصت لها،

أما اليوم، فقد تعلّمت أن ترى ما وراء الظاهر،

أن تفهم، وتُفكّر، وتُقدّر.
لقد أصبح الحلم أكثر نضجًا،
لم تعد تريده لنفسها فقط،
بل كانت تحلم أن تُضيء دربًا لغيرها،
ولو بكلمة، ولو بموقف،
ولو بابتسامة فيها أمل.

كان التغيير الذي طرأ على ميلا لا يشبه التغيرات العابرة
التي تمرّ بالناس دون أن تترك أثراً...
بل كان تغييراً حقيقياً، من الجذور.
وقد صدق شكسبير حين قال:

“الإنسان يتغير لسببين: حينما يتعلم أكثر مما يريد، أو
حينما يتأذى أكثر مما يستحق.”

ومِلا تَغَيَّرت ...

لأنها تعلّمت أكثر مما توقّعت،

وعرفت من الحياة دروسًا لم تُكتب في الكتب،

وشاهدت بعينيها كيف يُمكن للضعف أن يتحوّل إلى قوّة،

ولليأس أن يلد أملاً جديداً.

وتَغَيَّرت أيضاً ...

لأنها تأدّت أكثر مما تستحق.

تألّمت بصمت، تخلّى عنها البعض،

عانت من الظلم، وشعرت بأنها غريبة في أقرب البيوت،

لكنّها لم تتكسر ...

إنما كانت كل دمة تسقط منها، تُنبت شيئاً في قلبها:

عزيمة، نضج، تفهّم، أو ربما نور صغير يُرشدها إلى

الطريق الصحيح .

بعد صراعٍ طويل بين القلب والحلم، وجدت "ميلا" نفسها على مفترقٍ جديد. كانت الجامعات تفتح أبوابها للتقديم، وآخر فرصة لها أن تُقبل في الدراسة الصباحية باتت قريبة من الانتهاء.

تأخرها يعني أن الحلم سيتحول إلى مجرد مقعد في الدراسة المسائية، وهو ما لم تكن ترغب به أبداً.

جلست إلى جوار "آزاد" في إحدى الأمسيات، تحدثه بهدوء عن رغبتها بدراسة اللغة العربية، في أقرب جامعة إلى منزلهم، حتى لا تبتعد عن أولادها ولا تتأخر في دراستها.

لكنه كان غارقاً في همومه المادية التي ضيّقت عليه الخطى، فلم يُعر الأمر الاهتمام الذي كانت تنتظره.

أراد لها قسماً آخر، لا يشبه ما تهوى، ولا يتقاطع مع حلمها.

تكررت محاولاتها... توسّلت، ألحت، تحدثت بلين، ثم بحدة، ثم صمتت.

لكنه ظلّ على موقفه، متجاهلاً التقديم ومتأخراً في الدعم، حتى انفجرت الخلافات الصغيرة وتحولت إلى صدع عميق. في لحظة انكسار، جمعت "ميلا" بقايا نفسها، حملت أبناءها الثلاثة، وقررت أن تعود إلى بيت أهلها.

مرت عشرة أيام ثقيلة في منزل والديها.

لم يتصل بها أحد من عائلة زوجها، لا سؤال، لا خبر، لا حتى عن الأطفال.

حتى "آزاد"، الرجل الذي شاركته أيامها، لم يطرق بابها، لم يسأل عن فلذات كبده، وكأن جرحها لا يعنيه.

في إحدى الليالي، كانت ميلا تجلس على حافة السرير، تضع كفيها على خديها، ودموعها تنهمر بصمت مؤلم. كان الحزن يلفها من كل جهة، وشعور التجافي من أقرب الناس إليها خنق صوتها.

شعرت أن العالم ينهار، وأنها تُسحب ببطء نحو الهاوية.

لكنّ فكرة صغيرة برقت في رأسها...

الجامعة.

نهضت، مسحت دموعها بكفها، التقطت ورقةً وقلمًا،
واتصلت بأحد أقارب "آزاد" الذي يعمل في مديرية
التربية.

طلبت منه رقمها الامتحاني والرمز السري، وبدأت تبحث
بنفسها في الإنترنت عن خطوات التقديم.

وجلست، وحدها، تُحدّق في شاشة هاتفها، تكتب، تقرأ،
تراجع، وتملأ استمارة الانسيابية بحرص. وفي الخيار
الأول، وضعت القسم الذي أحبّته دومًا...

قسم اللغة العربية.

أنهت التقديم بنجاح، تنفست بعمق، شعرت وكأنها
استعادت جزءًا من ذاتها... جزءًا كانت تظنه قد ضاع في
زحام الإهمال والخذلان.

بعد مرور ثلاثة أيام، رنّ هاتفها في المساء، كان المتصل هو "آزاد"... الاسم الذي كانت تُخفيه تحت مسمى "عُمر عمري".

أجابت بصوتٍ تملؤه اللفهة، لكن ما إن سمعت صوته، حتى تذكرت أنهما ما زالا على خلاف. تنهدت وقالت بهدوءٍ متماسك:

– نعم، تفضل.

سألها بصوته المعتاد:

– كيف حالك؟

أجابت دون اكتراث:

– بخير... قل ما الذي تريده؟

قال ببساطة أربكت قلبها:

– أردت فقط أن أسمع صوتك... اشتقت إليك.

ردّت بمرارةٍ حاولت إخفاءها:

– الآن؟! وأين كنتَ طوال تلك الأيام؟!!

أجاب بصوتٍ منخفض:

— كانت لديّ ظروف، وغداً سأغادر في عملٍ خارج المدينة، فقط أحببت أن أخبرك... وعندما أعود، سأمر لأخذكم معي.

لم تُجبه... ساد الصمت، وكانت غصتها أعمق من أن تُترجم إلى كلمات. تحبه... نعم، لكنها لا تستطيع تجاهل ما فعله.

كيف غاب عنها كل هذه المدة؟ كيف سمح لقلبها أن ينكسر وهو يعلم أنها لم تعتد أن تقضي ليلةً واحدة بعيداً عنه؟! كيف جعل الناس يتشمتون بها؟ وهو يعلم تماماً أن البعض كان ينتظر سقوطها!

مرّ اليومان كلمح البصر، ثم رن الهاتف من جديد... وكان "آزاد" مرة أخرى.

قال هذه المرة:

— الحمد لله على السلامة، عدت من السفر؟

شعرت بكلماته وكأنها استهزاء، كيف يسألها وكأن شيئاً لم يكن؟! فردّت ببرود:

– قل ما تريد بسرعة... لدي عمل.

قال بنبرة أقرب للمزاح الجارح:

– وما عملك؟! أليس أنا جميع اعمالك؟

أجابت بحزن :

– أنت لم تعد ضمن أعمالي... ولا ضمن يومياتي.

قال:

– تمام يا ميلا... أنا الآن في طريقي إليكم.

لم تُجب... أغلقت الهاتف، ثم التفتت نحو والدتها:

– أمي... آزاد سيأتي ليأخذني، لا أعلم ماذا أفعل.

قالت أمها بحنان:

– عودي إليه... لا شيء يستحق أن تبقي بعيدة.

تنهدت ميلا، وقالت:

– تمام... إذن أخبري والدي بذلك.

وفعلًا، أخبرته وعادت إلى منزلها... لكن شيئًا ما قد تغير
في "ميلا". لم تعد كما كانت.

جلست بصمت، تحدّق في زوايا البيت الذي يحمل
ملامحها وذكرياتهما. عيناها غارقتان بالدموع، وصوتٌ
داخليّ يردد:

كيف استطاع أن ينساني كل هذا الوقت؟!!

كيف هانت عليه التي لم تفكر يومًا أن تبقى بعيدة عنه؟

كيف تركني ضحية لأحاديث الناس، وهو يعلم أن كثيرين
كانوا يتمنون انكساري؟!!

كانت عودتها جسدًا فقط... أما قلبها، فما زال تائهاً بين
الحب والخذلان.

اقترب منها ببطء، جلس على بعد خطوات، وقال:
 – أعلم أنني أخطأت... ولكني كنت أواجه ظروفًا لا
 يعلمها غيري.

رفعت رأسها نحوه، بعينين امتلأتا بالخدلان:
 – وأنا؟ ألا تظن أنني واجهتُ أكثر؟! ألم أكن طوال الوقت
 سندك؟! ما الذي يمنعك من أن تكون سندي هذه المرة؟!
 أطرق برأسه نادمًا، ثم قال:

– أضعفني الواقع... لكنك دائمًا كنت أقوى، ظننتك
 ستفهميني من دون أن أتكلم.

قالت وهي تقاوم دموعها:

– ليس كل صمت يُفهم يا آزاد... أحيانًا نحتاج فقط إلى
 كلمة "أنا هنا"، لا إلى الأعذار.

بدأ العتاب بينهما مثل كل حبيين...

قالت ميلا وهي تنظر إليه بعينين مرهقتين من البكاء:

– هل كان الرحيل هو أسهل خيار لديك؟

اقترب منها قليلاً، وقال:

– كان الأصعب... لكنني خشيت أن تكثر الجراح،
فتركتك تهدئين.

ضحكت بسخرية حزينة:

– تركتني أهدأ؟ أم تركتني أذوب في وجعي وحدي؟ كنت
أحتاجك أكثر من أي وقت، فلماذا اخترت الغياب؟

تنهد، وكأنه يحاول أن يشرح شيئاً لا يُقال:

– كنت أبحث عن راحتي وراحتك.

قالت:

– كل الذين جرحونا، قالوا إنهم كانوا يبحثون عن راحتنا!
وكان الراحة لا تأتي إلا برحيلهم.

نظر إليها طويلاً، ثم قال :

– ميلاً... أنا رجل عرف أن لا حياة له بدونك.

سكتت... ساد الصمت لحظة، ثم قالت بصوت خافت:

— كل ما أريده الآن... ألا تكون سبباً آخر في انكساري.
لقد جمعتُ نفسي من رماد كثير، فاحذر أن تذريني ريح
غيابك مرة أخرى.

مدّ يده نحوها بلطف، وقال:

— أعدك، هذه المرة... سأبقى.

نظرت إليه، لم تقل شيئاً... لكنها أغمضت عينيها قليلاً،
كأنها تحاول أن تمنح قلبها فرصة جديدة .

مرّت الايام و اقترب العام الدراسي الجديد، بدأت ميلا تستعدّ لخطوتها المنتظرة، كانت تحزم فرحتها بكل ما أوتيت من أمل، وتحضّر أوراقها ومستمسكاتها بيد، وتحضن حلمها باليد الأخرى.

انطلقت مع آزاد صباحًا، وفي الطريق مرّوا بمحلّ تصوير، وهناك طالبت منه أن يلتقطا صورة معًا، تظلّ ذكرى ليوم جميل كانت تنتظره منذ سنوات . ابتسم آزاد، وأمسك بيدها أمام الكاميرا، "فلم تكن الصورة لفتاة في العشرين من عمرها ، إنما لعجوز أنهكتها مرارة الايام .

وصلوا إلى الجامعة، وكان كل شيء يسير كما ينبغي، حتى اصطدموا بإجراء روتيني: "الكفيل".

قيل لهم إن المباشرة لا تكتمل دون كفيل موظف منذ أربع سنوات على الأقل. لم يكن يحقّ لأزاد أن يكفلها، فهو موظف حديث العهد.

أخرج هاتفه واتصل بوالدها، اعتقدت ميلا أن الأمور ستُحلّ أخيرًا، لكنها صُدمت بردّ الأب، فقد اعتذر وتذرّع بانشغالات واهية.

أغلق آزاد الهاتف والتفت إليها، فوجد دموعها قد سبقت صوتها، قالت وهي تحبس شهقتها:

— ماذا أفعل؟ لماذا حتى في الفرح يخذلني الجميع؟

وفي تلك اللحظة، لمحت رجلاً يتقدّم نحوهم، كان أحد حراس الكلية، يبدو عليه الوقار والطيبة. قال بهدوء:

— لا عليكِ يا ابنتي، أنا موظف قديم هنا... وسأكفلك.

كأن أبواب السماء انفتحت لميلاً، مسحت دموعها سريعاً، وابتسمت امتناناً.

تمّت المقابلة بسلاسة، وقُبلت رسمياً، وأُعطيت الموعد المحدد للدوام.

٢٠٢٣ / ١١ / ١٥

الأربعاء

كان هذا اليوم هو الأول لميلا في الجامعة، وقد بدا لها
كأنه اليوم الأول في المدرسة؛ عندما كانت طفلة شعور
غامر بالغربة والرغبة، وجهلٌ بالمكان والوجوه.

كانت تائهة بين الممرات،

لا تعرف إلى أين تمضي، ولا من تسأل.

بعض الطالبات أجابوها حين سألت، والبعض الآخر
تجاهلنها ومنهم من نظر إليها وضحك قائلاً:

“مرحلة أولى!”

وكانها كلمة تُقال بشيء من الاستهزاء.

كانت ميلا تحاول تمالك نفسها حين اقتربت منها فتاة
بلطف، وقالت: “هذا هو مقرر قسمكم، اذهبي إليه لتوقعي
مباشرتك، وهو سيدلك على قاعتك.”

سارت ميلا برفقة مجموعة من الفتيات، كل واحدة اتجهت إلى قسمها، فيما تابعت ميلا السير مع فتاة أخرى من نفس قسمها نحو غرفة المقرر.

كان المقرر مشغولاً ببعض الأمور، فطلب منهما الجلوس في مكتبه قليلاً حتى ينهي ما بيده .
جلست ميلا بهدوء،

ترتدي زيّاً رسميّاً أنيقاً بلون رمادي، يليق بها، ومعه شال أبيض ناصع، وقد بدت في مظهرها أكثر نضجاً من زميلاتهما، حتى إن من يراها قد يظنّها إحدى المدرّسات، لا طالبة في عامها الأول.

وفي تلك اللحظة، دخل أحد الأساتذة، ألقى التحية وجلس أمامهما، ثم نظر إلى ميلا باستغراب وسألها:

– “من أنتِ؟ هل تم تعيينكِ حديثاً؟”

أجابت برقة:

– “لا يا أستاذ، أنا طالبة.”

فإذا به يصرخ غاضباً:

– “انهضي! كيف تجلسين بهذه الراحة وأنت طالبة؟! ”

اضطربت ميلا وقفزت من مكانها، إذ لم تعتد يوماً أن يُرفع الصوت في وجهها.

لكن المقرر تدخل بهدوء، وقال:

– “أنا من طلبت منهما الجلوس، كنت مشغولاً ببعض الأمور.”

ثم نادى عليهما ليتابعا الإجراءات في الغرفة الأخرى، وطلب منهما بعدها التوجه إلى القاعة رقم (10).

ذهبتا إلى القاعة، وهناك كان أستاذ مادة النحو يشرح الدرس الأول،

وقد جلست ميلا تحاول استيعاب ما يُقال، لكنها لم تفهم شيئاً يُذكر...

فقد كانت لا تزال تحت وطأة التوتر والانشغال بالمحيط الجديد.

انتهت المحاضرة، وبدأت الفتيات بالخروج، أما ميلا فكانت تنظر إلى الوجوه الكثيرة، وتفكر:

كيف سأتعرف على إحداهن؟ هل سأقضي أيامي هنا بمفردي؟ أنا بحاجة إلى صديقة...

وفي طريق النزول على الدرج، شعرت بيد تُمسك يدها بلطف، التفتت فإذا هي فتاة تبتسم قائلة:

— “أنا خديجة.”

فأجابت:

— “وأنا ميلا.”

قالت خديجة:

— “هل نذهب إلى النادي لتناول القهوة؟ لدينا نصف ساعة حتى تبدأ المحاضرة التالية.”

— “نعم، فكرة جميلة.”

ذهبتا معًا، وانضمت إليهما فتيتان أخريات. جلست ميلا بينهم، وتبادلوا الأحاديث بودّ ومرح، كان يوماً متعباً، مرهقاً، لكنه جميل... يومٌ لن تنساه ميلا أبداً.

عادت ميلا إلى المنزل متعبة، وقد أخذ منها الصداق
والنعاس ما أخذ، فهي لم تعتد بعد على الاستيقاظ باكراً
ولا على روتين الجامعة.

كان يومها مرهقاً طويلاً، شعرت فيه بكل ثقل الحياة
الجديدة التي دخلتها بإرادتها.

دخلت المنزل تجرّ خطواتها، لتتفاجأ برائحة شهية تملأ
المكان... كانت رائحة السمك المقلي، وصوت المقلاة لا
يزال في المطبخ، وحين نظرت فإذا بأزاد هو من أعدّ
الطعام! لم تُصدق الأمر في بادئ الأمر...

أزاد؟ يطبخ؟ لأول مرة؟

نظر إليها مبتسماً وقال:

— “أعلم أنك جائعة، واليوم يومك الأول... أحببت أن
أسعدك قليلاً.”

جلست ميلا لتأكل، وكان الطعام لذيذاً جداً، ليس فقط لأن
النكهة جيدة، بل لأن من صنعه هو ذلك الرجل الذي نادراً
ما يقترب من المطبخ.

في اليوم التالي، كان جدولها يبدأ بمادة “الأدب الجاهلي” أو كما يُطلق عليه “أدب ما قبل الإسلام”. وصلت متأخرة قليلاً عن وقت المحاضرة، فدخلت القاعة بخطى مترددة، وفجأة اصطدمت عيناها بعين الأستاذ... كان هو نفسه من صرخ بوجهها في اليوم الأول، نفسه الذي وبّخها دون أن يمنحها فرصة للكلام.

تجمدت ميلا في مكانها، فغرقت نظراتها في الأرض، ولم تنطق بحرف.

قال لها الأستاذ بحدة خفيفة:

— “لا تتأخري مرة أخرى... تفضلي إلى مكانك.”

جلست ميلا، وجسدها مشدود من التوتر.

ومنذ ذلك اليوم، بقيت تشعر برهبة من هذا الأستاذ رغم أنه كان من أكثر الأساتذة محبة بين الطلاب، إلا أن الصدمة الأولى تركت أثراً لم يُمحَ بسهولة.

لم تكن تجرؤ على رفع يدها للإجابة، ولا على المبادرة بالكلام.

لكن الوقت مضى، وبدأت الامتحانات الأولى تقترب،
وبدأت ميلا تجد نفسها أكثر فأكثر في عالم الجامعة.
درست بجدّ، وكتبت بإخلاص، فكانت نتائجها ممتازة، وقد
لاحظ الأساتذة اجتهادها، حتى كوّنوا عنها انطباعاً طيباً
بأنها طالبة مجتهدة .

مرّت السنة الدراسية الأولى، وكانت ميلا تحلم بأن تكون
الأولى على زميلاتها، لكنها حصلت على المركز الثاني
بتقدير “جيد جداً”. فرحت كثيراً، ولم تُخفِ غصتها
الصغيرة... لكنها كانت تعلم أن هذا الإنجاز هو بداية
الطريق فقط، وأن القادم سيكون أجمل.

في يوم 18 حزيران من عام 2024، قررت ميلا أن تمنح نفسها استراحة صغيرة من ضغط الدراسة وضجيج الحياة.

شعرت أن روحها بحاجة إلى لحظة تنفّس، إلى فاصل بين كل هذه الانشغالات المتتالية التي سلبت منها بهجة العمر شيئاً فشيئاً.

اقترحت السفر، وكان القرار أن يتوجهوا إلى شمال إيران، حيث الطبيعة الساحرة والمناخ المنعش.

سحبوا قرضاً بسيطاً، وجهزوا حقائبهم.

كانت رحلة ممتعة بكل تفاصيلها، شاركتم فيها أخت آزاد وزوجها، وامتلأت أيامهم بالمغامرات، الألعاب، والضحكات التي غسلت قلوبهم من التعب.

أحسّت ميلا وكأنها تحيا من جديد... وكان كل الأشياء التي أثقلتها قد أزيحت عنها فجأة.

“لم يترك آزاد شيئاً في خاطري إلا وأكمّله بيده”، قالتها وهي تنظر إلى صورهم التي التقطوها هناك.

كانت من أجمل الأيام التي عاشتها منذ سنوات.

لكن كما هي العادة... السعادة لا تكتمل طويلاً.

لم تمر سوى خمسة أيام على عودتهم إلى البلاد، وكانت لا تزال تستقبل الزائرين الذين يأتون لتحياتها والاطمئنان على سلامة عودتهم، حتى جاء ذلك الاتصال.

كانت تتجهّز للخروج مع آزاد، حين رنّ هاتفه فجأة، ردّ وهو لا يعلم ما ينتظره، فسمع صوتاً متعجّلاً يقول:

– “آزاد... علي عمل حادث، ونُقل للمستشفى التركي، حالته حرجة جداً.”

تجمّدت ميلاً، ثم انهارت على الأرض باكية، لا تكاد تُصدق أذنيها.

علي... أخوها؟ قطعة من قلبها؟

ركضت إلى بيت أهلها، لكن لم تجد أحداً سوى أخواتها وزوجات إخوتها، أما الآخرون فقد غادروا جميعاً إلى المستشفى.

طلبت من آزاد أن يأخذها فوراً لرؤية علي، لكنه رفض، بحجة أن الوضع لا يسمح بوجود الكثير من الزائرين الآن.

ذلك الرفض جرحها بعمق... لم تتحمل أن تُمنع من رؤية أخيها في لحظات الخطر.

كان ذلك اليوم أحد أسوأ أيام حياتها، دفعت فيه ميلاً ثمناً من صحتها وراحتها وطمأنينتها.

دخل علي في غيبوبة، وبقي على حاله أكثر من شهر، لا يفيق ولا يتحرك، بين الأمل والخوف.

كانت ميلاً تذهب لزيارته كل فترة، تهمس بدعواتها بين دموعها، وتترك على رأسه آيات من القرآن .

كل مرة كانت تراه فيها، كانت تشعر أن شيئاً منها يتكسر بصمت.

كانت تزوره كلما سُمح لها بذلك، ترفع يديها في الصلاة وتقرأ الأدعية والزيارات، وتبكي بحرقة في حديقة منزلها، ساجدة على التراب تستجدي من الله أن يعيد لها شقيقها. أيام من الحزن والانكسار عانقتها بقسوة، حتى جاء الفرج: استيقظ علي من غيبوبته، واستعاد وعيه تدريجياً.

احتفلوا بخروجه من المستشفى، لكن ما لم يُحتفل به كان ما تركته تلك الأزمة من أثر في قلب ميلا.

الإرهاق النفسي كان قد أخذ منها الكثير، وجعلها أكثر هشاشة من ذي قبل.

وفي خضم محاولتها لملمة شتات نفسها، بدأت تعاني من اضطرابات في الغدة الدرقية. زارت طبيبها، وهناك طلب الطبيب فحص آزاد أيضًا بعد ملاحظته لتضخم واضح في عنقه. وبعد إجراء الفحوصات، أخبرهم الطبيب بأن على آزاد أن يخضع لعملية استئصال للغدة في أقرب وقت ممكن.

تم تحديد موعد للعملية. وفي اليوم السابق لعودته من المستشفى، رتبت ميلا كل ركن في المنزل بعناية فائقة. أرادت أن تُشعره وكأنه عريس يُزف إلى بيته، لا مريض عائد من غرفة العمليات.

خاطت فساتين لها ولبناتها، وجهزت كل شيء بأدق التفاصيل، وعندما بدأ الأقرباء بزيارتهم، أعجب الجميع بترتيبها وذوقها وأناقتها، لكن لم يكن أحد يعلم ما بداخلها.

كانت العطلة على وشك الانتهاء، لكن وضع آزاد الصحي لم يكن قد استقر بعد.

غابت ميلا عن الجامعة أسبوعاً كاملاً، ثم علمت أن اسمها أُدرج في لائحة الإنذارات بسبب الغياب.

استعانت بشقيق زوجها ليأخذها إلى الجامعة، الأمر الذي لم يرق لعائلة آزاد، فقد أرادوا منها البقاء إلى جانبه، رغم أنهم لم يقدموا لها أي دعم يُذكر، لا مادياً ولا معنوياً.

لم يسألها أحد إن كانت بحاجة إلى شيء، ولم يهتموا حتى بتوفير أبسط حاجات البيت.

وحده شقيق آزاد جلب لهم القليل من المشتريات في بداية مرضه، ثم اختفى الجميع.

رغم كل شيء، عادت ميلا إلى مقاعد الدراسة، وهي تحاول أن تتمسك بأملها، رغم خوفها من ألا تكون قادرة على مواصلة التفوق في ظل الظروف المتغيرة، خاصة وأن مواد المرحلة أصعب من سابقتها.

وفي يوم 17 / 10 / 2024، كان موعد استلام نتائج فحص نسيج الغدة التي أُزيلت من آزاد. ذهباً معها إلى العيادة، وكان لديها أيضاً مراجعة عند طبيبتها النسائية. أنهيا المواعدين، وتوجها إلى مطعمهما المفضل لتناول العشاء. حاول آزاد أن يجعل اليوم خفيفاً، كأن شيئاً لم يحدث، طلب لها طعامها المفضل رغم سعره المرتفع، وتحدثا وضحكا، والتقطا صوراً بدت فيها ملامح التعب واضحة على وجهه.

عند عودتهما، سأله ميلا:

— “هل أنت بخير؟”

فأجابها:

— “نعم، أنا بخير.”

لكن في السيارة، بدا وكأنه يحاول أن يقول شيئاً.

وما إن اقتربا من المنزل، حتى قال لها بصوت هادئ:

— “ميلا، أريد أن أخبرك بشيء، لكن عديني ألا تحزني.”

قالت بتوتر:

– “قل، ماذا هناك؟”

– “تحليل الغدة لم يكن جيدًا... أنا مصاب بورم سرطاني.”

ساد الصمت، كأن الزمن توقف.

لم تستوعب ميلا ما سمعته للوهلة الأولى.

اعتقدت أنه يمزح أو يختبر رد فعلها، لكنها سرعان ما أدركت من نبرة صوته أن الأمر حقيقي. شعرت بسواد يلف العالم من حولها. لم تتمكن من التنفس، بدأ جسدها يرتعش، وانهارت بالبكاء. كانت صدمة قاسية، لم تعش مثلها حتى حين أصيب شقيقها بالحادث.

عادت إلى البيت وجفوناها تقطران بالدموع.

وعندما سألتها ابنتها الصغيرة عن نتيجة التحليل، لم تستطع الإجابة. كانت الطفلة ذات العشر سنوات حساسة للغاية، ولم تملك ميلا الجرأة للكذب عليها، فاكتفت بتغيير الموضوع.

في تلك الليلة، نامت على ذراع آراد باكية، لكن البكاء لم ينته.

استفاقت منتصف الليل وأكملت ما بدأته من أنين وحزن،
تقلبت على الوسادة والدمع لا يفارق عينيها، كان الليل
ثقيلًا، مؤلمًا، طويلًا لا نهاية له.

حينها أدركت ميلا إن الألم جزء من الحياة، لكن الإيمان
هو السلاح الذي يجعلنا نستمروا والحب الحقيقي يظهر في
أصعب الأوقات، عندما يكون السند أقوى من الظروف.

“لماذا يحدث هذا لي؟ ولماذا الآن؟”

كانت ميلا تكرر هذا السؤال في داخلها مرارًا، وهي في
العشرين من عمرها، في الوقت الذي يُفترض فيه أن
تزهو حياتها وتُكَلِّل بالفرح. لكنها لم تكد تفرح بشيء،
حتى يطرق الحزن بابها مجددًا، وكأنه يقيم على عتبة قلبها
لا يغادر.

ظلت تبكي أيامًا طويلة، حتى جفت دموعها.

لكنها لم تملك ترف الانهيار، فقد وجب عليها أن تساند
آزاد، شريك عمرها.

والقدر شاء أن يكون الورم قد استُؤصل بالكامل، فأوصى الطبيب بمتابعة العلاج باليود المشع، ضمن بروتوكول علاجي دقيق.

ولأن وقع الخبر ثقيل، لم يخبروا والدته بالأمر. تلك المرأة المكسورة التي فقدت ابناً، وزوجاً، وأحفاداً، كيف يمكن أن تحتل فكرة أن ابنها الآخر مصاب بالسرطان؟ أخفوا عنها الحقيقة، واكتفوا بابتسامات وطمأنات خفيفة، لا تعبر عن شيء مما يجري في الحقيقة.

دخل آزاد مرحلة العلاج، وكان هناك نظام صارم عليه الالتزام به، من حيث الغذاء والعزلة المؤقتة.

وللمرة الأولى منذ زمن، وقف الجميع معه: عائلته، وعائلة ميلا. كانت ميلا ممتنة لذلك، لكنها لم تشعر بالطمأنينة. كل شيء كان يتحرك حولها، إلا قلبها... ظلّ معلقاً بين القلق والإنهاك.

تحسّن وضع آزاد تدريجياً، واستجابت حالته للعلاج. لكن ماذا عن ميلا؟ هل استقرت؟

كانت تُجبر نفسها على الذهاب إلى الجامعة كل صباح،
تُجبر وجهها على الابتسام، وخطواتها على الثبات.
لا أحد يعرف ما تعيشه في الظل، ولا أحد يهتم بما تحمله
في قلبها.

بعض الطالبات كنّ يتتمرّن على الفتيات اللواتي يبدين
"مبهذلات" أو مرهقات، فكانت تُضطر لأن تبدو في كامل
أناقتهن، رغم أنها بالكاد كانت تستطيع الوقوف.
وفي وسط هذه الفوضى، جاء المدهش.

الأستاذ الذي كانت تخشاه، ذلك الذي صرخ بوجهها في
أول يوم جامعي، أصبح اليوم أكثر الأساتذة قرباً منها.
ترقى وأصبح رئيس القسم، وصار يلاحظها ويشجعها،
فكانت كلماته البسيطة كفيلة بأن تبقىها واقفة.
أما العلاج باليود، فكان يتطلب عزلاً تاماً.

لم يكن بإمكان آزاد أن يقترب من زوجته ولا من أطفاله.
فأرسلت ميلا ابنها الصغير إلى بيت والدتها، وبقيت البنتان
معها لأن دراستهما لا تحتل الانقطاع.

أخذ آزاد إجازة طويلة من عمله، وتولّى المدير توزيع حصصه على معلّم آخر.

مرت الأيام ثقيلة، بطيئة، ومؤلمة. لكنهم صمدوا... بكل ما يملكون من قوة، صمدوا.

وانتهت هذه المرحلة العصيبة، ولكن ليس بسهولة.

انتهت مثقلة بآثارها، محفورة في ملامحهم، في نومهم المتقطع، وفي نبرة صوت ميلا التي لم تعد كما كانت. لكنها على الأقل، انتهت.

ورغم كل الصعوبات التي حاصرتها من كل جانب...
رغم المرض،

والوحدة،

والخذلان،

والتعب النفسي والجسدي...

أنهت ميلا المرحلة الثانية من دراستها.

لكنها لم تُنهها كأي عامٍ مضى.

هذه المرة، كانت مختلفة... كانت شرسة في سعيها، عنيدة
في حلمها، صلبة رغم ضعفها، ومضيئة رغم ظلام الأيام
التي عبرتها.

قاتلت وجاهدت في صمت...

لم يعلم أحد كم دمة أخفتها عن العالم، وكم ليلة سهرت
فيها والقلق يخنق صدرها، وهي تحاول أن توازن بين
بيتها وكتبها، بين دور الزوجة، ودور الأم، ودور الخياطة
ودور الطالبة.

و حين ظهرت النتائج،

كانت ميلا الأولى على دفعتها، بتقدير امتياز.

كان ذلك اليوم أول يوم تنتصر فيه على كل شيء حاول
أن يهزمها.

ابتسمت، لأنها أثبتت لنفسها أن الألم لا يعني النهاية،

وأن اليأس ليس قدرًا،

وأنها قادرة على صنع المعجزات، حين تؤمن بنفسها،
وتتشبث بحلمها،

ولو كانت وحيدة.

يقول جبران خليل جبران:

(هناك أشياء كلما تمسّكت بها زادتك ألمًا، حينها يصبح التخلي عنها واجبًا).

هناك أشياء فعلاً يجب التخلي عنها، ربما تكون عادات سيئة مثل الكذب، وإيذاء النفس، وإدمان المخدرات، والسرقة، وقتل الأنفس، وأكل حق اليتيم، وغيرها من العادات التي تكون نهاياتها مدمّرة.

لكن ليس كل ما يؤلمك يجب تركه؛ فهناك أشياء يجب التمسك بها مهما أوجعتنا، ومهما أتعبنا السعي وراءها... فهي أحلامنا.

لا تترك حلمك، واجعل منه هدفك، واجتهد خلفه ما دمت حيًّا.

حقق حلمك، وإن فات الأوان... حاول مرة وأخرى، في المحاولة تُصنع المعجزات ويُصنع المستقبل.

لا تقل: لم أنجح، فقط لأن أول محاولة باءت بالفشل.

قف أمام المرأة، وردد:

(أنا أستطيع، سأفعلها، لن أراجع، إن الله جلّ وعلا لن يترك عبداً سعى، أنا أتوكل على ربي، ولن يتركني في المنتصف).

تذكر دائماً أن الله معك... في كل خطواتك.